الباب الثامن

- الوافدات على معاوية من صواحب على :
- من يضرب به المثل منهن :
- أمثال نسائية رددها الحاضر والبادى .

بين يدى هذا الباب

● قال أحمد بن عبد ربه فى الوفود :

« إنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، وتستهذب الألفاظ ، وتستجزل المعانى .

ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم ، وزعيمهم الذى عن قوسه ينزعون (١) ، وعن رأيه يصدرون ؛ فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن ألسنة .

وما ظنك بوافد يتكلم بين يدى خليفة ، فى رغبة أو رهبة ، يوطد لقومه مرة ، ويتحفظ ممن أمامه أخرى ! .

أتراه مدخرا نتيجة من نتائج الحكمة ، أو مستبقيا غريبة من غرائب الفطنة ؟ .

أم تظن القوم قدموه لفضل هذه الخطة إلا وهو عندهم فى غاية الحذلقة (٢) ، واللسن ، ومجمع الشعر والخطابة ! .

ألا ترى أن قيس بن عاصم المنقرى ، لما وفد على النبى ﷺ بسط له رداءه ، وقال : هذا سيد أهل الوبر ! » .

● وأنا أقول فى هؤلاء الوافدات :

إليك وافدات النساء على معاوية من صواحب على رضى الله عنه .

---

(١) نزع عن القوس رمى عنها ، والمراد أنهم تابعون له يأتمرون بأمره .

(٢) الحذلقة إظهار الحذق والقدرة الكلامية ، واللَّسَن : الفصاحة .

ترى كيف كان ذاك اللقاء بين من ضرب المثل « بشَعرتِه » فقال :

لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ؛ لأنهم إذا شدوا أرخيت ! وإذا أرخوا شددت ؟! .

– وبين من قيل لهن : « إن كيدكن عظيم » ! .

ولمن ياترى تكون الغلبة ؟!! .

ذلك ما تجده فى حوار ثمان منهن .. .

١ – وفود سودة ابنة عمارة على معاوية (١)

عامر الشعبى قال : وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبى سفيان ، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت عليه ، فقال لها : كيف أنت يابنة الأشتر ؟ قالت : بخير ياأمير المؤمنين .

قال لها : أنت القائلة لأخيك :

شمر كفعل أبيك يابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه ... واقصد لهندٍ وابنها بهوان (١)
إن الإمام أخا النبى محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدماً بأبيض صارم وسنان

---

(١) سودة : كانت سفيرة لقومها تعرض شكواهم على الرجل الذى أصبح خليفة عليهم دون رغبة منهم ، ولكن ما دام الأمر قد صار إليه ، وولى عليهم – عن قصد منه – واليا ظالما – فلا مفر من الشكوى إليه مع أمل ضعيف فى أن يجنبهم ظلم واليه ، وبطشه بهم وقتله رجالهم . ولم تجبن سودة عن تهديد الخليفة ، تهديدًا صيغ من ألفاظ فى رقة الحرير « فإما عزلته عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك » أى فعرفناك ظالما ولابد من مقاومة ظلمك .

(٢) هند : هى هند بنت عتبة ، والدة معاوية .

قالت : ياأمير المؤمنين : مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسى .

قال : هيهات ، ليس مثل مقام أخيك ينسى .

قالت : صدقت والله ياأمير المؤمنين ، ما كان أخى خفى المقام ، ذليل المكان ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم[1] فى رأسه نار

وبالله أسأل ياأمير المؤمنين إعفائى مما استعفيته . قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك . قالت : ياأمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأمورهم متقلد ، والله سائلك عما افترض[2] عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن أرطاة[3] قدم بلادى ، فقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة ، فإما عزلته فشكرناك ، وإما لافعرفناك ! .

فقال معاوية : إياى تهددين بقومك ، والله لقد هممت أن أردك على قَتَبٍ أشرس[4] ، فينفذ حكمه فيك . فسكتت ، ثم قالت :

صلى الإله على روح تضمنه[5] قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغى به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ .

---

(١) علم : جبل . وهم يقولون فى كل مشهور معروف : أشهر من نار على علم .

(٢) افترض عليك : أوجب عليك من حقوق للرعية .

(٣) ابن أرطاة : أحد ولاة معاوية الشداد .

(٤) قتب : الرحل الصغير على قدر سنام البعير . أشرس : سيىء متعب ونرى أن معاوية يغلظ لها القول ، وما كان له ولا لغيره أن يغلظ القول لامرأة ! .

(٥) تضمنه : اشتمل عليه .

قالت : على بن أبى طالب رحمه الله تعالى .

قال : ما أرى عليك منه أثرا ! .

قالت : بلى ، أتيته يوماً فى رجل ولاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ماين الغث والثمين ، فوجدته قائما يصلى ، فانفتل من الصلاة (١) ، ثم قال برأفة وتعطف :

ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم إنى لم آمره بظلم خلقك ، ولا ترك حقك . ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم .. ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ (٢) . ﴿ ولا تعثوا (٣) فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك . والسلام .

فعزله ياأمير المؤمنين . ماحزمه بحزام ، ولا ختمه بختام .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها . فقالت : ألى خاصة أم لقومى عامة ؟ .

قال : ما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسعنى مايسع قومى . قال : هيهات !، لمظكم (٤) ابن أبى طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئا ماتفطمون ، وغركم قوله :

فلو كنت بوابا على باب جنةٍ لقلت لهمدان (٥) : ادخلوا بسلام

---

(١) انفتل : تخلص بسرعة .
(٢) سورة الأعراف : من الآية ٨٥ .
(٣) بقية الآية ٨٥ ، ٨٦ من سورة هود .
(٤) لمظكم : من التلمظ وهو تحريك اللسان فى الفم بعد الأكل ، والمراد عودكم .
(٥) همدان : قبيلة يمية كانت تناصر عليا كرم الله وجهه .

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى[1] فتحة الباب
كالهندوانى لم تقلل مضاربه وجه جميل وقلب غيروجاب [2] .

اكتبوا لها بحاجتها [3] .

٢ - وفود بكارة الهلالية على معاوية

محمد بن عبد الله الخزاعى عن الشعبى قال :

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبى سيفان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت ، وعشى [4] بصرها ، وضعفت قوتها ، ترعش [5] بين خادمين لها ، فسلمت وجلست ، فرد عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت ياخالة ؟ .

قالت : بخير ياأمير المؤمنين ، قال : غيرك الدهر ! قالت : كذلك هو ذو غير [6] ، من عاش كبر ، ومن مات قبر .

قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

يازيد دونك فاستشر من دارنا سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره [7] ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال مروان : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

---

(١) سنّى فتحة الباب : أتاح لها وسهل .
(٢) الوجّاب : كثير الخفقان من وجب القلب وجيبا سمع صوت دقاته .
(٣) بالها من زعيمة أعز الإسلام جانبها ، ووسعت الثقافة فكرها ، وعمقت أفقها .
(٤) العشا : سوء البصر بالليل ، أو سوء البصر بالليل والنهار ، أو العمى .
(٥) ترتعش وترتعد .
(٦) غير الدهر : أحداثه .
(٧) أذخره : أدخره .

أترى ابن هندٍ [1] للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالةً أغراك عمرو للشقا وسعيد [2]

قال سعيد بن العاصى : هى والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتى فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمدَ عائبا [3]

ثم سكتوا . فقالت : يامعاوية ، كلامك أعطى بمرى ، وقصر حجتى ، أنا والله قائلة ماقالوا ، وماخفى عليك منى أكثر ! .

فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك .

قالت : أما الآن ، فلا .

* * *

٣ - وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمر الغسانى عن الشعبى قال : حدثنى جماعة من بنى أمية ممن كان يسمر مع معاوية قالوا : بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد ، إذ ذكروا الزرقاء ابنة عدى بن غالب بن قيس الهمدانية ، وكانت شهدت مع قومها صفين ، فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ .

قال بعضهم : نحن نحفظه ياأمير المؤمنين . قال : فأشيروا على فى أمرها .

فقال بعضهم : نشير عليك بقتلها . قال بئس الرأى أشرتم به على ، أيحسن بمثلى أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعدما ظفر بها .

---

(١) معاوية .
(٢) عمرو بن العاص ، وسعيد بن العاصى وكانت لهما الحظوة فى مجلس الخليفة .
(٣) على وفاطمة .. والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين .

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاء لينا ، ويسترها بستر خصيف [1] ، ويوسع لها فى النفقة ، فأرسل إليها عامله ، فأقرأها الكتاب ، فقالت : إن كان أمير المؤمنين قد جعل الخيار إلى فإنى لا آتيه ، وإن كان حتم فالطاعة أولى . فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به .

فلما دخلت على معاوية قال : مرحبا وأهلا ، قدمت خير مقدم قدمه وافد ! كيف حالك ؟ .

قالت : بخير ياأمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة .

قال : كيف كنت فى مسيرك ؟ .

قالت : ربيبة بيت ، أو طفلا ممهداً .

قال : بذلك أمرناهم ، أتدرين فيم بعثت إليك ؟ .

قالت : أنى لى بعلم ما لم أعلم ؟!

قال : ألست الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين الناس على القتال ، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ .

قالت : ياأمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال لها معاوية : صدقت ، أتحفظين كلامك يومئذ ؟ .

قالت : والله لا أحفظه ، ولقد أنسيته .

قال : لكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :

أيها الناس ، ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم [2]

---

(١) خصيف : غليظ . والوطاء الفرش اللين والخصيف المحكم النسج .

(٢) غشتكم : أى غطتكم وألبستكم . وجلابيب : جمع جلباب وهو ما يلبس وتقصد أن هذه الفتنة قد لفتهم بظلامها .

جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولاتنساق لقائدها ، إن المصباح لايضيء فى الشمس ، ولاتنير الكواكب مع القمر ، ولايقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، ودمغ الحق باطله ، فلا يجهلن أحدٌ فيقول :

كيف العدل ؟ وأنى ؟ ليقض الله أمراً كان مفعولا .

ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم مابعده :

والصبر خير فى الأمور عواقباً

إيها فى الحرب قدماً غير ناكصين [1] ولا متشاكسين

ثم قال لها : والله يازرقاء لقد شركت عليا فى كل دم سفكه ! .

قالت : أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك ؛ فمثلك بشر بخير ، وسر جليسه .

قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم والله ، لقد سررت بالخبر ، فأنى لى بتصديق الفعل .

فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته ، أعجب من حبكم له فى حياته . اذكرى حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسى ألا أسأل أميرا أعنت عليه [2]

---

(١) إيهاً : اسم فعل . يقصد به طلب الزيادة . ونكص على عقبيه : تراجع منهزما

(٢) أعنت عليه : وقفت ضده ، وفى صف غير صفه .

أبدا . وذلك أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلبه .

قال : صدقت ! وأمر لها وللذين معها بجوائز وكسا .

* * *

٤ - وفود أم سنان بنت خيثمة

سعيد بن حذافة قال : حبس مروان بن الحكم وهو والى المدينة غلاما من بنى ليث فى جناية جناها فأتته جدة الغلام أم أبيه ، وهى أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية ، فكلمته فى الغلام فأغلظ لها مروان .

فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه ، فانتسبت فعرفها ، فقال لها :

مرحبا يابنة خيثمة ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتك تشتمينا وتحضين علينا عدونا ؟ .

قالت إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافرة ، لايجهلون بعد علم ، ولايسفهون بعد حلم ، ولاينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ماسن آباؤه لأنت .

قال : صدقت ! نحن كذلك . فكيف قولك :

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد
ياآل مذحج لا مقام فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصد
هذا على كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عم محمد ... إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
مازال مذ شهد الحروب مظفرا ... والنصر فوق لوائه ما يفقد

قالت : كان ذلك ياأمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفا بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف ياأمير المؤمنين وهى القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هاديا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك مادعت ... فوق الغصون حمامة قمريا
قد كنت بعد محمد خلفاً كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيا
فاليوم لا حلف يؤمل بعده ... هيهات نأمل بعده إنسيا

قالت : يا أمير المؤمنين ، لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ماظننا فحظك الأوفر .

والله .ما ورثك الشنآن (١) فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء . فادحض مقالتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربا ومن المؤمنين حبا .

قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت سبحان الله ! ، والله مامثلك مدح بباطل ، ولااعتذر إليه بكذب ؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا .

كان والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك .

قال : ممن ؟ قالت : من مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص . قال :

وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت : بسعة حلمك ، وكريم عفوك . قال : إنهما يطمعان فى ذلك . قالت : هما والله من الرأى على ماكنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله . قال : والله لقد قاربت . فما حاجتك ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إن مروان تبنك فى المدينة تبنك من لايريد منها البراح ، لايحكم بعدل ، ولايقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابنى ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألعقته أمر من الصاب ، ثم رجعت إلى نفسى باللائمة ، وقلت لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ؟ فأتيتك ياأمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظرا ، وعليه معديا .

قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ، والقيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه .

قالت : ياأمير المؤمنين ؛ وأنى لى بالرجعة ، وقد نفد زادى وكلت راحلتى ؟ .

فأمر لها براحلة ، وخمسة آلاف درهم .

---

(١) الشنآن : الكراهية .

٥ - وفود عكرشة بنت الأطرش

على معاوية

أبو بكر الهذلى عن عكرمة قال :

دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على عكاز لها ، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست ، فقال لها معاوية : الآن ياعكرشة صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إذ لا على حى . قال : ألست المقلدة حمائل السيوف بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

أيها الناس عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة لايرحل عنها من أوطنها ، ولايهرم من سكنها ، ولايموت من دخلها ؛ فابتاعوها بدار لايدوم نعيمها ، ولاتنصرم همومها ، وكونوا قوما مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم .

إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف [١] القلوب ، لايفقهون الإيمان ، ولايدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه ، فالله الله عباد الله فى دين الله ، إياكم والتواكل ؛ فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفىء نور الحق .

هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدا ، ولقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البقر ، وتروث روث العتاق [٢] .

فكأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون : هذه

---

(١) غُلف جمع أغلف ، والقلب الأغلف كأنما غشى غلافا ؛ فهو لا يعى .

(٢) تصقع : تخلف رائحة كريهة .

عكرشة بنت الأطرش بن رواحة . فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ؛ فما حملك على ذلك ؟ قالت : ياأمير المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين امنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ (١) وإن اللبيب إذا كره أمرا لايحب إعادته ، قال : صدقت ، فاذكرى حاجتك .

قالت : إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وإنا قد فقدنا ذلك ، فما يجبر لنا كسير ، ولا ينعش لنا فقير ، فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك استعان بالخونة ولا استعمل الظلمة .

قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور هى أولى بها منكم . بحور تنبثق وثغور تنفتق (٢) .

قالت : يا سبحان الله ، والله مافرض الله لنا حقا فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو علام الغيوب .

قال معاوية : يا أهل العراق ، نبهكم على بن أبى طالب فلم تطاقوا ! ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

---

(١) سورة المائدة : ١٠١ .

(٢) يريد ما يجد من فتوحات وتوسعات تحتاج إلى أن توجه الأموال إليها ، وكأنما يبرر عدم رد صدقات قوم عكرشة فى فقرائهم ليقرع الحجة بالحجة فى هذا الحوار الممتع الذى انتصرت فيه عكرشة ، ورجعت وقد صدر الأمر برد صدقاتها وإنصافها .

٦ – قصة دارمية الحجونية مع معاوية

رحمه الله تعالى

سهل بن أبى سهل عن أبيه قال : حج معاوية ، فسأله عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية ؛ وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجيء بها ؛ فقال : ماحالك يابنة حام (١) ؟ فقالت : لست لحام إن عبتنى ؛ أنا امرأة من بنى كنانة .

قال : صدقت . أتدرين لم بعثت إليك ؟ .

قالت : لا يعلم الغيب إلا الله .

قال : بعثت إليك لأسألك : علام أحببت عليا وأبغضتنى ؛ ووالیته وعاديتنى ؟ قالت : أو تعفنى . قال : لا أعفيك .

قالت : أما إذ أبيت ، فإنى أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك ماليس لك بحق ، ووالیت عليا على ماعقد له رسول الله ﷺ من الولاء ، وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء . وحكمك بالهوى .

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك .

قالت : بهند – والله – كان يضرب المثل فى ذلك لا بى (٣) .

---

(١) ينسبون الجنس الأسود إلى حام بن نوح .

(٢) العجيزة : العجيزة للمرأة خاصة ، والعَجُز من كل شيء مؤخره ، وامرأة عجزاء : عظيمة العجيزة .

(٣) هند أم معاوية وامرأة أبى سفيان ، ومحرضة وحاضة على قتل حمزة .

قال معاوية : ياهذه ، اربعى [1] ؛ فإنا لم نقل إلا خيرا :

إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم حلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها . فرجعت وسكنت قال لها : ياهذه ، هل رأيت عليا ؟ قالت : إى والله . قال : فكيف رأيته ؟ .

قالت : رأيته – والله – لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك .

قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم – والله – فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيت صدأ الطست [2] . قال : صدقت ! فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم . قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء ، فيها فحلها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟ .

قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر .

قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحل عندك محل على بن أبى طالب ؟ .

قالت : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان [3] ، وفتى ولا كالك [4] ، ياسبحان الله أو دونه ؟ فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم ... فمن ذاالذى بعدى يؤمل للحلم؟
خذيها هنيئا ، واذكرى فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : أما – والله – لو كان على حيا ما أعطاك منها شيئا .

قالت : لا – والله – ولا وبرةً واحدة من مال المسلمين .

* * *

(١) اربَعى : توقفى عن هذا الكلام ، وانتظرى .

(٢) الطَّست : إناء من نحاس لغسل الأيدى ونحو ذلك .

(٣) السعدان : من أفضل مراعى الإبل ، رعْيُه : يقر ماؤها أعذب وهذان مثلان يضربان لمن يفضل على أقرانه وأشكاله .

(٤) قاله متمم بن نويرة فى أخيه مالك حين قتل . يُضرب لمن يطلب المعروف عند اللئيم .

٧ - وفود أم الخير بنت حريش على معاوية

عبيد الله بن عمر الغسانى عن الشعبى ، قال : قال : كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارق برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيرا ، وبالشر شرا بقولها فيه ، فلما ورد عليه كتابه ، ركب إليها فأقرأها كتابه ؛ فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى .

فلما شيعها وأراد مفارقتها ، قال لها : يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه مجازينى بالخير خيرا ، وبالشر شرا ؛ فما لى عندك ؟ قالت : ياهذا لا يطمعنك برك بى أن أسرك بباطل . ولا تؤنسك معرفتى بك أن أقول فيه غير الحق .

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأنزلها مع الحرم ؛ ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه ؛ فقالت : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال لها : وعليك السلام ياأم الخير . بحق مادعوتنى بهذا الاسم ؟ .

قالت : ياأمير المؤمنين ، مه ؛ فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه (١) ، ولكل أجل كتاب ، قال : صدقت ! فكيف حالك ياخالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : لم أزل ياأمير المؤمنين فى خير وعافية حتى صرت إليك ، فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق . قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم . قالت : ياأمير المؤمنين ، يعيذك الله من دحض المقال ، وما تردى عاقبته . قال : ليس هذا أردنا .

---

(١) البديهة : المفاجأة ، ومدحضة : مبطلة .

أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن زورته قبل ، ولا رويته بعد [1] ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ، فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت .

فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها ياأمير المؤمنين . قال : هات .

قال : كأنى بها وعليها برد زبيدى كثيف ، بين النسيج ، وهى على جمل أرمك [2] ، وقد أحيط حولها حواء [3] ، وبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدر فى شقشقته [4] تقول :

يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم !، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل ، ورفع القلم ، ولم يدعكم فى عمياء مدلهمة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ .

أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ .

أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : ﴿ ولَنَبلُوَنَّكُمْ حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ [5] .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرعبة ، وبيدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله ، هلموا – رحمكم الله – إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ،

---

(١) روَّيْتُ فى الأمر : فكرت فيه ، وزوَّرْته : زينته .

(٢) الأرمك : الرمادى .

(٣) الحواء : ما يتخذ حولها كالوسادة على الرحل .

(٤) الشَّقْشِقَةُ : شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج – والعامة فى مصر يقولون فى ذلك « يضرب بالقنة » .

(٥) سورة محمد : ٣١ .

إنها إحن بدرية (١) ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس . (٢)

ثم قالت : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ .

صبرا يامعشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لاتدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، وعما قليل ليُصبحن نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص .

إنه من ضل – والله – عن الحق وقع فى الباطل ، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا لها ، فالله الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ؛ فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأبى سبطيه (٣) ؟ خلق من طينته ، وتفرع من نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين (٤) ، ها هو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ؛ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن (٥) ؛ فيالها من وقائع زرعت فى قلوب نفاقا وردة وشقاقا ، وزادت المؤمنين إيمانا ، وقد اجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فقال معاوية : ياأم الخير ، ماأردت بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتك ماحرجت فى ذلك .

---

(١) الإحن جمع إحنة : الأحقاد . وبدرية نسبت إلى بدر وهى أول الوقائع بين المسلمين والمشركين . تريد أن معاوية بإثارته الحرب على علىّ إنما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر .

(٢) سورة التوبة : ١٢ .

(٣) السبط الحفيد ، والحسن والحسين سبطاه . وعلىّ أبوهما .

(٤) تشير بذلك إلى الحديث « لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق » .

(٥) تريد بذلك يوم حنين .

قالت والله مايسوؤنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه .

قال : هيهات ياكثيرة الفضول . ماتقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله ؟ .

قالت : وماعسيت أن أقول فى عثمان ؟ استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون ! .

قال معاوية : ياأم الخير ؛ هذا والله أصلك الذى تبنين (١) عليه .

قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ، ماأردت بعثمان نقصا ، ولكن كان سابقا إلى الخير ، وإنه لرفيع الدرجة غدا .

قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله (٢) ؟ قالت : وماعسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتيل من مأمنه ، وأتى من حيث لم يحذر ! وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة .

قال : فما تقولين فى الزبير (٣) ؟ قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول ﷺ وحواريه (٤) ؟ وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ، وقد كان سباقا إلى كل مكرمة فى الإسلام ، وأنا أسألك بحق الله يامعاوية ، فإن قريشا تحدثت أنك أحلمها – أن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفينى من هذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها .

قال : نعم ونعمة عين ، قد أعفيتك منها . ثم أمر لها . بجائزة رفيعة وردها مكرمة .

---

(١) يريد أن سوء رأيها فى عثمان هو الذى دفعها إلى مناصرة على .

(٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين ، والأبطال المعلمين ، وعاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة ، وسادس ستة اختارهم عمر رضى الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأول صحابى بايع علياً ثم استحال رأيه فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة . يوم الجمل وهنالك أُصيب بسهم أودى به رضى الله عنه .

(٣) كان أمر الزبير حيال على شبيها بأمر طلحة . وكان قد انضم إلى جند عائشة ، فأرسل يذكره بقول رسول الله له : « لتقاتلنه – يريد تقاتل عليا – وأنت ظالم له » فانثنى عن الموقعة فرارا من الباطل ، وعودا إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له : وادى الباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له : عمر بن جرموز .

(٤) حوارية : الحوارى الناصر للأنبياء ، وحوارى الرجل صفوته من الناس .

٨ – وفود أروى بنت عبد المطلب

على معاوية رحمه الله

العباس بن بكار قال : حدثنى عبد الله بن سليمان المدنى ، وأبو بكر الهذلى ، أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهى عجوز كبيرة ، فلما رآها معاوية قال : مرحبا بك وأهلا ياعمة ، فكيف كنت بعدنا ؟ .

فقالت يابن أخى ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة فى الإسلام ، بعد أن كفرتم برسول الله ﷺ ، فأتعس الله منكم الجدود ، وأضرع منكم الخدود [1] ، ورد الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هى العليا ، ونبينا ﷺ هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده ، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر ؛ فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون ، وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى ، فغايتنا الجنة وغايتكم النار .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصرى عن قولك مع ذهاب عقلك ، إذ لا تجوز شهادتك وحدك ! .

فقالت له : وأنت يابن النباغة تتكلم ! وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربع على طلعك ، واعن بشأن نفسك ؛ فو الله ماأنت من قريش فى اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة

---

(١) من الضراعة والذلة .

نفر من قريش [كلهم يزعم أنه أبوك] فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبههم به فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به .

قال : مروان : كفى أيتها العجوز ، واقصدى (١) لما جئت له .

فقالت : وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم ؟! .

ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك وإن أمك القائلة فى قتل حمزة :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر(٢)
ما كان لى عن عتبة من صبر ... فشكر وحشى(٣) على دهرى
حتى ترم (٤) أعظمى فى قبرى

فأجابتها بنت عمى وهى تقول :

خزيت فى بدر وبعد بدر ... يابنة جبار عظيم الكفر

فقال معاوية : عفا الله عما سلف ياعمة ! هاتى حاجتك (٥) .

قالت : مالى إليك حاجة ، وخرجت عنه .

* * *

---

(١) تكلمى فى الموضوع الذى جئت من أجله مباشرة ، ودعى كلامك هذا بشأن عمرو ابن العاص .

(٢) تستعر ويشتد لهيبها .

(٣) وحشى قاتل حمزة . وقد أسلم . وعاش حتى قتل مسيلمة الكذاب .

(٤) تصبح بالية فهى رميم .

(٥) اذكرى ما جئت من أجله .

فى الأمثال السائرة

قال ابن عبد ربه :

.. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأمثال ، التى هى وشى الكلام وجوهر اللفظ ، وحلى المعانى ، والتى تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهى أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شىء مسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قيل : « أسير من مثل » .

وقال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر [1]

ولقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه وضربها رسول الله ﷺ فى كلامه .

قال الله عز وجل : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ﴾ [2] وقال : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين ﴾ [3] ومثل هذا فى القرآن كثير ومن أمثال العرب مما روى أبو عبيد جردناها من الآداب التى أدخل فيها أبو عبيد إذ كنا قد أفردنا للأدب والمواعظ كتبا غير هذا .

وضممنا إلى أمثلة العرب القديمة ما جرى على ألسنة العامة من الأمثال المستعملة ، وفسرنا من ذلك ما احتاج إلى التفسير [4] .

---

(١) الخابر : من لديه خبرة بالأمور وعلم .

(٢) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٣) سورة النحل : ٧٦ .

(٤) استخلصنا الأمثال الخاصة بالنساء مما يناسب كتابنا هذا . المحقق .

ومن ذلك قولهم فيمن يضرب به المثل من النساء

يقال :

- أشأم من البسوس .
- وأحمق من دُغة .
- وأمنع من أم قرفة .
- وأقود من ظلمة .
- وأبصر من زرقاء اليمامة .

البسوس : جارة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، ولها كانت الناقة التى قتل من أجلها كليب بن وائل ، وبها ثارت الحرب بين بكر بن وائل وتغلب ، التى يقال لها : « حرب البسوس » .

وأم قرفة : امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزارى ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا ، كل سيف منها لذى محرم لها .

ودغة : امرأة من عجل بن لجيم ، تزوجت فى بنى العنبر ، بن عمرو بن تميم .

وزرقاء بنت نمير : امرأة كانت تبصر الشعرة البيضاء فى اللبن ، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام ، وكانت تنذر قومها الجيوش ، إذا غزتهم ، فلا يأتيهم جيش إلا وقد استعدوا له ، حتى احتال لها بعض من غزاهم ، فأمر أصحابه ، فقطعوا شجراً أمسكوه أمامه بأيديهم ، ونظرت الزرقاء فقالت :

إنى أرى الشجر قد أقبل إليكم ! .

قالوا : قد خرفت ورق عقلك ، وذهب بصرك ، فكذبوها وصبحتهم الخيل ، وأغارت عليهم ، وقتلت الزرقاء [1] .

قال : فقوروا عينيها ؛ فوجدوا عروق عينيها قد غرقت فى الإثمد [2] ؛ من كثرة ما كانت تكتحل به .

وظلمة : امرأة من هذيل ، زنت أربعين عاما ، فلما عجزت عن الزنا والقود ، كانت تقود تيسا لينزو على عنز ! .

صدق الحديث

ومن قولهم : القول ما قالت حذام .

وهى امرأة لجيم بن صعب ، والد حنيفة وعجل ، ابنى لجيم ، وفيها قال :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

سوء المسألة وسوء الإجابة

وقالوا : حدث امرأة حديثين ، فإن لم تفهم فأربعة . كذا فى الأصل ؛ والذى أحفظ : فأربع ، أى أمسك .

التعريض بالكناية

ومنه قولهم : إياك أعنى ، واسمعى ياجارة .

---

(١) وجرى المثل : أبصر من زرقاء اليمامة .

(٢) الإثمد : حجر أسود يدق ويكتحل به .

الدعاء بالخير

وقولهم فى النكاح :

على بدء الخير واليُمْنِ .

وقولهم : بالرفاء والبنين . يريد بالرفاء : الكثرة ، يقال منه : رفأته إذا دعوت له بالكثرة .

تعيير الإنسان صاحبه بعيبه

قالوا : رمتنى بدائها وانسلت .

الذب [1] عن الحَرَم

وقولهم : النساء لحم على وضم ، إلا ماذب عنه .

وقولهم : النساء حبائل الشيطان .

وقولهم : كل ذات صدارٍ [2] خالة . يريد أنه يحميها كما يحمى خالته .

تأديب الكبير

قال الشاعر :

وتروض عرسك بعدما هرمت ومن العناء رياضة الهـــرم

وقولهم :

أعييتنى بأشر فكيف بدردر ؟! .

يقول : أعييتنى وأنت شابه ، فكيف إذا بدت درادرك وهى مغارز الأسنان ؟! .

---

(١) الذَّب : الدفاع ، وسمى الذباب ذبابا ، لأنه كلما ذُبَّ آبَ .

(٢) الصِّدار : قميص تلبسه المرأة .

إعجاب الرجل بأهله

منه قولهم : كل فتاةٍ بأبيها معجبة .

وقولهم : القرنبى [1] فى عين أمها حسنة .

وقولهم : زين فى عين والد ولده .

وقولهم : حسن فى كل عين من تود .

وقولهم : من يمدح العروس إلا أهلها .

العفو عند المقدرة

منه قولهم : ملكت فأسجح .

وقد قالته عائشة رضى الله عليها لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه يوم الجمل حين ظهر على الناس فدنا من هودجها ، وكلمها فأجابته : ملكت فأسجح . أى ظفرت فأحسن ، فجهزها بأحسن الجهاز ، وبعث معها أربعين امرأة . وقال بعضهم : (سبعين) ، حتى قدمت المدينة .

مفاكهة الرجل أهله

منه قولهم : كل امرىء فى بيته صبى .

يريد حسن الخلق والمفاكهة .

ومنه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إنا إذا خلونا قلنا .

ومنه قول النبى ﷺ : « خياركم خياركم لأهله » .

ومنه قول معاوية : إنهن يغلبن الكرام ، ويغلبهن اللئام .

---

(١) القرنبى : دويبة كالخنفسة طويلة القوائم .

المروءة مع الحاجة

منه قولهم : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها .

وضع الشيء فى غير موضعه

ومنه قولهم : كمعلمة أمها الرضاعة .

البخيل يعتل بالعسر

ومنه قولهم : قبل النفاس كنت مصفرة .

طلب الحاجة المتعذرة

منه قولهم : تسألنى برامتين سلجماً . وأصله أن امرأة تشهت على زوجها سلجماً وهو ببلد قفر ، فقال هذه المقالة ؛ والسلجم : اللفت .

ومنه قولهم :

إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ما سرك منى من خلق

المصانعة فى الحاجة

من يطلب الحسناء يعط مهرها .

الظلم من نوعين

منه قولهم : أغيرةً وجبنا ؟! .

قالته امرأة من العرب لزوجها تعيره حين تخلف عن عدوه فى منزله ، ورآها تنظر إلى القتال ، فضربها ، فقالت : أغيرة وجبنا ؟! .

الكريم يهضمه اللئيم

لو ذات سوارٍ لطمتنى ! .

والحمد لله أولا وأخيرا .